الجرأة على الدمار وما بعده

علي الصراف
كاتب عراقي

دمرت الحكومة السورية البلاد، وتريد من العالم أن يدفع لها الأموال لكي تعيد البناء.

الرئيس بشار الأسد، الذي قاد حملة التدمير والتهجير حتى انتهت إلى تشريد أكثر من 12 مليون سوري داخل وخارج البلاد، ظل يمتلك الجرأة، لا تعرف كيف، على مهاجمة الدول التي تستضيف اللاجئين السوريين، لأنها لا تدفع له، لقاء ما قام هو به.

لقد كانت الأعمال المنهجية تتم وفقا لسياسة "الأرض المحروقة". وكانت هي خياره الوحيد للتغلب على التمرد الشعبي، الذي اندلع في العام 2011. وعلى مدى 9 سنوات من بعدها، ظلت طائراته ودباباته تهدم وتهدم حتى تحولت مشاهد الخراب إلى متحف قائم بذاته للوحشية العمياء؛ متحف من الخير أن يبقى كما هو لسببين اثنين على الأقل.

الأول، إن ما تهدم كان من العمق بحيث لم يعد مفيدا إصلاحه. وأصبح بناء مدن جديدة على أرض بكر، أكثر جدوى من الناحية الاقتصادية.

والثاني، لكي يبقى الخراب شاهدا على وحشية نظام أعمى، بلا حس، وبلا ضمير.

ولكي يمارس وحشيته تلك، بحقد وقناعة مسبقين، فقد كان نظام الأسد هو الذي حول التمرد الشعبي إلى تمرد مسلح. أولا بإطلاق سراح الإرهابيين والمتطرفين من السجون، وثانيا بتزويدهم بالسلاح.

أطنان من الأسلحة تم تسليمها في بعض الأحيان "تسليم يد بيد" لكي يتم استخدامها كذريعة لتحريك كل آلة التدمير التي امتلكها الجيش السوري. وهذا ما حصل.

لم يكن القمع المألوف ليبدو كافيا بالنسبة لنظام أشبع شعبه قمعا على امتداد نصف قرن.

لقد كان يجب، لمواجهة ما تجرأ الشعب عليه، أن يُواجه هذا الشعب بالعقاب الأقصى: الدمار الشامل، والتشريد الشامل.

كان بشار الأسد ورفقته، يدرك، بقناعة راسخة، أنه لا يملك خيارا آخر. ليس لأن السوريين وحوش، وليس لأنهم لم ينسوا عذابات عقود من القمع العميق، بل لأنه لا يريد أن يترك لهم شبرا من الحرية، ولا أن يعطيهم شبرا من الشراكة في سلطته المطلقة، كما لا يريد رقيبا على فساد نظامه، ولا من يجرؤ على المساءلة، أو الدفع إلى احترام القانون، حتى ولو صاغه بنفسه.

ولقد كان السوريون مستعدين لبقاء نظامه أيضا، مقابل تعديل بسيط، لا يُميت الذئب ولا يُفني الغنم، كما كانوا مستعدين لشطب ماضي الجريمة كله، مقابل فسحة صغيرة من العمل المشترك لإعادة بناء الحياة السياسية. إلا أنه لم يشأ أن يسمح بتلك الفسحة، ولا بذلك الشبر. سلطة مطلقة، كانت تعني في النهاية خيارا بين اثنين: إما خنوعا مطلقا، أو دمارا مطلقا. وهذا ما حصل.

صاحب نظرية "سوريا المفيدة"، يريد الآن إعمار سوريا "غير المفيدة" بأموال دول يعتبرها "داعمة للإرهاب ضد سوريا".

هل يمكن لأي أحد أن يعثر على منطق خلف هذه الفوضى الذهنية؟

ويحسب الأسد أن العالم نسي كل ما وقع؛ نسي مشاهد القتل والدمار رغم أنها ما تزال قائمة، نسي عذابات الملايين، رغم أنها ما تزال تصرخ، حتى ليجرؤ على مطالبة دول العالم بأن تدفع له مكافأة على ما فعل.

يمكن للمرء أن يكون جريئا، ولكن هل كان يمكن حتى للجن الأزرق أن يتخيل وقاحة تصل إلى هذا الحد؟

اللاجئون السوريون، بحسب بشار الأسد، يريدون العودة إلى بلدهم، إلا أنهم "يتعرضون لضغوط تمنعهم من العودة".

كل الدول الأوروبية تنشر إعلانات في مراكز الهجرة لتمويل عودة كل من يرغب، وتعرض عليهم المال لإغرائهم بالعودة. إلا أن الرئيس الأسد قال في افتتاح مؤتمره "الدولي" لعودة اللاجئين السوريين في دمشق، "إن دول الاستقبال تستغلهم أبشع استغلال، وتحول قضيتهم من قضية إنسانية إلى ورقة مساومة سياسية".

أما الاستغلال، فهو أن اللاجئين السوريين الذين غامروا بحياتهم في قوارب متداعية للوصول إلى البر الأوروبي، يعيشون في منازل لا تقصفها طائرات. ولعل هذا هو الشيء البشع من وجهة نظره.

إذ هل يُعقل أن يسكن اللاجئون السوريون في منازل آمنة؟ هل يعقل أن يكتشفوا سبلا للعيش بكرامة؟ هل يُعقل أن يتلقوا مساعدات إذا كانوا عاطلين عن العمل؟ وأن يذهب أطفالهم إلى المدارس، وألا تلاحقهم مخابرات، وأن يحصلوا على تأمين صحي وخدمات متساوية مع بقية خلق الله، وأن لا يدفعوا رشاوى لموظفين في الدولة؟

شيء بشع، حقا. فالسوريون الذين لم يُخلقوا إلا لنظام كنظامه، لا يستحقون أن يُعاملوا كبشر من الأساس. لقد خُلقوا كغنيمة.

> تقدر تكاليف إعادة إعمار سوريا بـ400 مليار دولار، وبينما تريد دمشق أن تحصل على المال على سبيل التعاطف فإن مؤسسات التمويل تريد ضمانات بألا تعود الطائرات لتلقي براميل متفجرة على رؤوس الناس

السؤال ليس هو ما إذا كان اللاجئون يريدون العودة، بل كم يبقى من السوريين تحت سلطته لو فتحت أمامهم طرق الهجرة؟

ولولا المشاق المصطنعة التي صارت تضعها الدول الأوروبية في مخيمات اللاجئين الجدد للحد من موجات الهجرة، لكان الشعب السوري كله ذهب إلى أوروبا لكي يتم "استغلاله أبشع استغلال"، ولا أن يعيش في حارة محترفي أعمال التعذيب ومغتصبي النساء ممن يقودهم.

أما "القضية الإنسانية التي تحولت إلى ورقة مساومة"، فهي أن الدول الأوروبية تطالب بتوفر ضمانات لأمن اللاجئين، لاسيما وأن السلطات السورية ما تزال تعتبرهم خونة وعملاء وإرهابيين. وهذه أوصاف تجعل أحكام الإعدام هي الحد الأدنى للعقوبات التي تنتظرهم. أما الحد الأقصى، فقد سجلته صور قيصر لما كان يحصل في سجون الأسد.

ولقد ندد الأسد في خطابه أمام المؤتمر بالعقوبات "غير الشرعية" التي تفرضها الولايات المتحدة وحلفاؤها على نظامه. أما لماذا تم فرض هذه العقوبات، فذلك شأن لا يجب ذكره.

الأعمال الوحشية التي كشفت عنها صور قيصر، كانت هي السبب، ولكن لم تتوفر لطبيب العيون، عينا لتراها.

لقد كانت تلك الجرائم، بحسب المنطق السائد في دمشق، عادة من العادات التي ألف السوريون العيش فيها. فلماذا يجب أن تتحول إلى قضية؟

أما الدمار، فتقدر تكاليف إعادة إعماره بنحو 400 مليار دولار. وبينما تريد دمشق أن تحصل على المال على سبيل التعاطف مع ما فعلت، فإن مؤسسات التمويل الدولية تريد ضمانات بألا تعود الطائرات لتلقي براميل متفجرة على رؤوس الناس.

روسيا تعهدت بتقديم مليار دولار لإصلاح شبكات وخطوط الكهرباء. وعلى رغم ضآلة المبلغ، أو هزاله وفقره، فالحقيقة هي أن هذا الجانب "مربح" من ناحية الاستثمار. وبقي أن تتوفر 399 مليار دولار أخرى، ويفترض أن تأتي من الدول التي "تستغل اللاجئين"، بحسب التصور الذي يصدر عنه بشار الأسد.

وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف الذي أُلقيت عنه كلمة بالنيابة، قال إن هذه الدول تمارس أساليب "غير بناءة وغير إنسانية".

الأوروبيون يتساءلون: في ماذا؟ في القصف العنيف؟ أم في الأرض المحروقة؟ أم في الأسلحة الكيميائية؟ أم في صور قيصر؟

لافروف طالب أيضا بعدم "تسييس" قضية اللاجئين، لأنه يعتقد أن هذه القضية نشأت عن حادث سير، لا صلة له بالسياسة.

وحيثما "يكاد المريب يقول خذوني" فقد اعتبر أن الدول التي رفضت المشاركة في المؤتمر تريد أن تجعل سوريا "رهينة للمصالح الأنانية الجيوسياسية".

فهل كان لافروف يقف أمام المرآة عندما كتب خطابه عن بلد تحول إلى رهينة لمصالح بلاده هو؟

الوقاحة أشكال. بعضها زائد عن الحد، ولكن من عاشر بشار الأسد كل هذه المدة، ورافق أعمال نظامه، يستطيع أن يتخيل أنها شيء طبيعي.

شيطنة الآخر.. قبل اشتعال حرب دينية في مصر

سعد القرش
روائي مصري

بعد فوز دونالد ترامب بولاية أولى وأخيرة في نوفمبر 2016، وقف مايكل مور أمام برج ترامب، حاملا لافتة "كلنا مسلمون". كان المخرج الأميركي وحيدا، ضئيل الحجم أمام مبنى شاهق لرجل الأعمال، ولكنه أراد إعلان تضامنه مع المسلمين في بلاده، والرد على العنصرية.

في صيف 2016، قبل فوز ترامب بأربعة أشهر، كتب مور مقالا عن المزاج الأميركي العام الكفيل بإنجاح ترامب "السيكوباتي، البائس، الجاهل، الخطر، المهرج، شبه الفاشي الذي سيصبح القائد الأعلى لقواتنا المسلحة"، وقد دخل البيت الأبيض محمولا على 62.9 مليون صوت. وخسارته انتخابات 2020 أكثر قلقا من فوزه السابق، فوراءه 72.6 مليون، لسان حالهم يقول: ذهب ترامب وبقيت الترامبية.

لا شيء يختفي فجأة، ولا فكرة تموت بذهاب رمزها؛ فلم يكن ترامب من أبدع العنصرية، وإنما هو تعبير عنها، وتجسيد لطغيان حضورها. جاء إلى المشهد الدولي وسط احتقان عمومي يتصاعد منذ تفجيرات 11 سبتمبر 2001، سياق يشبه وإن اختلفت الأسباب أزمة 1929 التي أدت، بعد عشر سنوات، إلى حرب كبرى. في تلك الأجواء، لو لم يظهر أدولف هتلر لدفعت المرارة والاستعلاء زعيما ألمانيا آخر إلى إعلان "ألمانيا فوق الجميع"؛ فأيسر السبل إلى إلهاء شعب مأزوم هو اختلاق أعداء، وشيطنة الآخر. ولم يغب ذلك عن وعي جو بايدن، فقال في خطاب تجاهل فيه اسم ترامب إن "حقبة شيطنة الآخر قد انتهت".

انتخاب بايدن ليس حلا للأزمة، لن يكون مانديلا أو جاسيندا أردرين رئيسة وزراء نيوزيلندا. ترامب عنوان، وغروبه لا ينهي القلق؛ ففي أميركا 72.6 مليون يؤمنون بالترامبية، قنبلة ستنفجر لاحقا، وتُخرج هتلر أو إيمانويل ماكرون. وربما تفرّخ مرتكبين لجرائم ضد الإنسانية لا تسقط بالتقادم، وقد ينالون جائزة نوبل للسلام، قبل الجريمة مثل أون سان سو تشي المسؤولة عن مجازر ضد مسلمي ميانمار، أو بعد الجرائم مثل مناحيم بيغن المطلوب للعدالة في قضية اغتيال اللورد برنادوت وسيط السلام بفلسطين عام 1948. بيغن بوصف بن غوريون "ينتمي دون شك إلى النمط الهتلري، فهو عنصري على استعداد لإبادة كل العرب؛ لتحقيق حلمه بتوحيد إسرائيل".

ما علاقتنا في مصر بهذه الشيطنة للآخر؟ ربما تكون مشكلتنا هي توجّه الشيطنة ليس إلى الآخر، وإنما إلى مواطن تتبعه دائما صفة "مسيحي"، ويكفي سماع جملة تلقائية لمسلم حسن النية يصف جارا، أو موظفا حسن السيرة، بأنه "مسيحي لكنه كويس"، وكأن الأصل في المسيحي، ما دام مسيحيا، أنه سيء. التربية الطائفية الإخوانية التي أرساها حسن البنا دفعت مرشد تنظيم الإخوان مصطفى مشهور، عام 1997، إلى التصريح بعدم جواز إلحاق المسيحيين المصريين بالجيش؛ "لأنه سيكون مشكوكا في ولائهم.. بدلا من ذلك يجب أن نلزمهم بسداد الجزية". وفي عام 2009 قال المرشد مهدي عاكف "يحكمني مسلم ماليزي ولا يحكمني مصري غير مسلم".

هذه نظرة تكاد تكون سلفية عامة، وتنتظر رجلا رشيدا، ليكن شيخ الأزهر، يضع حدّا لحرب العقائد القائمة في مصر. ومن الإنجازات الإنسانية أن يؤمر خطباء مصر بالكف عن ختم خطبة الجمعة بلعن اليهود والنصارى، ولكن ما في القلوب تعلنه الألسنة في لحظات المصارحة. وتشتعل وسائل التواصل الاجتماعي حاليا بحرب يتنابذ فيها المتراشقون بالعقائد، ينقّبون عما يرونه عيوبا في محاولة غبية لتقويض عقيدة "الآخر". فعلها الوكيل السابق لوزارة الأوقاف سالم عبدالجليل مستشار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بإيقاد نار الفتنة، عام 2017 في أجواء متوترة بين المسلمين والمسيحيين في الصعيد، وقال في برنامجه التلفزيوني "المسلمون يتساءلون" إن عقيدة اليهود والنصارى فاسدة وضالة.

> ترامب عنوان وغروبه لا ينهي القلق، ففي أميركا 72.6 مليون يؤمنون بالترامبية وهم قنبلة ستنفجر لاحقا وتُخرج هتلر أو إيمانويل ماكرون، وربما تفرّخ مرتكبين لجرائم ضد الإنسانية لا تسقط بالتقادم

الرشد الإنساني ألا يمس أحد عقيدة غيره، فالاتهام السفيه يرتد إلى صاحبه، وينال من عقيدته. العقيدة عقيدة، لا تناقش ولا فساد فيها ولا ضلال، وإن وجد ضلال أو فساد فلا يضر أحدا. ماذا يضر المسلم إذا عبد غيره سحابة أو حجرا؟ قلوب المؤمنين بالديانات الإبراهيمية إذا اطمأنت بالإيمان، فكيف يخشون إلحاد الملحدين؟ لكل إنسان أن يعتقد ما يشاء، وحسابه على الله. ولا يقتصر الهوس على سلفيين مسلمين، ففي إحدى الفضائيات مذيع ذو لهجة مغربية، اسمه مسبوق بلقب "الأخ"، يعلن أن عناية السيد المسيح أنقذته من الإسلام، وبدلا من تبشيره بسماحة دينه، يتفرغ "الأخ" للانتقام، بتسفيه كل ما له علاقة بالإسلام.

عودٌ إلى التربية، إلى مناهج تعليمية يفترض أن ترسخ روح الأديان والإيمان بالإنسان، عبر تفاعل مباشر غير موجود حاليا في نظام التعليم المصري. التعليم في مراكز خاصة تدرّب الطالب على مهارة الحفظ، لاجتياز الامتحان. يذهب الطلاب إلى المدرسة يومين في الأسبوع، حضور صوري لا علاقة له بتربية أو تعليم.

يروي نجاتي صدقي في مذكراته أنه دعي ليلة عيد الميلاد لسنة 1927 إلى زيارة كنيسة بموسكو، ومعه زميله الزنجي الأميركي جونس، ومرت عجوز روسية تحمل شمعة وقع ضوؤها على وجه جونس، فارتدت ورسمت علامة الصليب، وصرخت "شيطان.. شيطان". وأخبرهم "بعض المصلين أنهم لم يروا زنجيا في حياتهم". هل نشبه حاملة الشمعة؟

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk